الأدب الفرانكفوني بين المنفى اللغوي ومأزق الهوية.

د. أمال سعودي *

جامعة محمد البشير الابراهيمي/ برج بوعريريج - الجزائر ، amel.saoudi@univ-bba.dz

الإرسال: 2021/04/24 القبول: 2023/02/12 النشر: 2023/04/20.

الملخص:

إن الانفصال عن اللغة الأم يعتبر مشكلة ثقافية ونفسية عند الكتاب الجزائريين الذين كانت لغتهم الفرنسية للكتابة طيّعة ، معبّرة عن البنيات الروحية والثقافية والاجتماعية التي تميز بها المجتمع الجزائري ، فوقعوا في إشكال بين اللغة كنظام صرفي ونحوي وبين اللغة كنظام حسّاس مرتبط بالمقومات الوطنية ، وهل تعتبر اللغة الفرنسية خيانة للمبادئ الوطنية ؟ وهل يمكن أن نعتبر اللغة كألفاظ ونحو وصرف استعمارية أو أن مضامين الأدب هي التي تجعلها استعمارية أو وطنية ؟ ، وهل في اختيار اللغة مواقف إيديولوجية أو سياسية ذات أبعاد تحرّرية ؟

الكلمات المفتاحية: المنفى اللغوي- مأساة اللغة – أزمة الهوية – لغة المنفى.. .

Francophone literature between linguistic exile and identity predicament

* **المؤلف المرسل.**

Abstract:

Separation from the mother tongue is considered a cultural and psychological problem for Algerian writers whose French language for writing was malleable, expressing the spiritual, cultural and social structures that characterize Algerian society, so they fell into a problem between language as a morphological and grammatical system and language as a sensitive system linked to national constituents, and whether language is considered French betray national principles? Can we consider language as colonial terminology, grammar and morphology, or is it the contents of literature that make it colonial or national? And are the choice of language ideological or political positions with libertarian dimensions?

key words: Linguistic exile- The tragedy of language - Identity crisis- The language of exile.

1. مقدمة:

يقول **مالك حداد** عبارته المشهورة La langue Française est mon exil...»(عبد العزيز شرف ،1991 ، ص47)، هذه هي مأساة الكاتب الجزائري الذي راح يكتب بلغة الآخر وأصبح يعيش **مأساة التمزق** ، فمالك حداد اعتبر أن اللغة الفرنسية هي المنفى الذي يعيشه ، وما هو معروف عن اللغة أنها تحدد هوية النتاج الأدبي خاصة وأن الأدب الجزائري تدخلت في تشكيله عدة عوامل من لغة وبيئة وفكر وتاريخ ، وثقافة محلية

تصارعت مع ثقافة غربية ، فهذه العناصر انفعلت واندمجت لتثمر في النهاية عن أدب ناطق بالفرنسية.

هذه الظاهرة الثقافية واللغوية أثارت جدلا واسعا بين الدارسين لاعتبار اللغة الوسيلة التي تكسب هوية الأدب ، حتى **مولود فرعون** شعر بالأسى لعدم قدرته على التعبير باللغة العربية عن القضية القومية الجزائرية ، هذه النقطة استغلها **محمد ديب** جيدا واتخذ من لغة المستعمر سلاحا ذو حدين كشف به حقيقة فرنسا "**وزيف ادعاءاتها أمام العالم مجسّدا حقيقة الظلم والعدوان الذي يتعرض له الشعب الجزائري." (عبد المجيد حنون ،1986، ص99)** واستغل الأدب وسيلة للمقاومة موصلا صوته إلى المتحدثين بهذه اللغة قبل غيرهم.

ومن هنا نطرح مجموعة من التساؤلات لمن ينتسب هذا الأدب ؟ وإلى أي مدى يمكن للغة أن تحدد هوية الأدب ؟ وكيف تشكل الكتابة بلغة الآخر **أزمة هوية**؟ وهل هذه الكتابات مخلصة لمقوّمات الثقافة والهوية الوطنية الجزائرية ؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات سنلج عالم الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية ونحاول فك أزمة اللغة والهوية

2- لغة المنفى والمنفى اللغوي:

ساهمت سياسة الفرنسة التي طبقتها فرنسا على بلدان المغرب العربي خاصة الجزائر سواء في التعليم أو الإدارة إلى ظهور جيل ناطق بالفرنسية ، وجد سهولة كبيرة في التعبير بها عن أفكارهم وقوميتهم ، وسرعان ما ذاع صيت أسماء من الكتاب الجزائريين مثل كاتب ياسين ومحمد ديب ومولود فرعون ومولود معمري وآسيا جبار ...كتبوا عن الواقع الاستعماري وحال الجزائر وشعبها تحت وطأة الاضطهاد الفرنسي ، فوُلدت تجربة إبداعية ذات بعد جمالي وإيديولوجي موجهة لاختراق الحاجز الفرنسي انطلاقا من لغته ، فبرز لنا صراع بين مضمون هذه الأعمال وبين لغتها.

فظهرت في الواجهة **مأساة اللغة** التي اعتبرها الكتاب الجزائريون بأنها منفى ، فهذا **كاتب ياسين** يقول: «**إن معظم ذكرياتي وإحساساتي وأحلامي ومناجاتي الداخلية مرتبطة ببلدي ، فمن الطبيعي أن أشعر بها في قالبها الأصلي بلغتي الأم العربية ؛ لكني لن أتمكن من تقديمها والتعبير عنها إلا باللغة الفرنسية.**» (عايدة أديب بامية ، 1967 ، ص 274).

فهو ينظر إلى اللغة الفرنسية كمنفى حقيقي ؛ لكنه يتخذ منها وسيلة يثبت بها للفرنسي أنه ليس فرنسيا ، وهي الأسلوب النضالي الأنسب لنصرة القضية الجزائرية ، فالجزائر ملهمته والمصدر السخي لإبداعه الأدبي الذي سعى من خلاله إلى إعادة قيمة وهيبة الأديب الجزائري في الساحة العالمية ، فأبدع نصوصا للحيرة بين النقاد ، وتأسست حيرة النص بين الهموم الوطنية والمشاعر القومية بلغة دخيلة أجنبية.

هذه اللغة التي تطورت في وعي الكاتب وثقافته منذ الصغر وموهبته في سرد الحكايات مكنته من منافسة الأدب الفرنسي ، وما رواية "نجمة" إلا دليل على اتصاله بثقافته وهويته الجزائرية الأصيلة رغم لغتها الفرنسية ، لكن بعد الاستقلال يتوقف عن الكتابة بلغة الآخر ؛ لأنها تتحول إلى منفى يحن من خلاله إلى لغته الأم.

ومع هذا فإن لغة الآخر مكّنت الكتاب من إيصال صوت الجزائر والدفاع عنها ، فقوة الحبر لا تقل عن قوة السلاح ، وهو ما يؤكده **مولود معمري** بقوله: « **إنني على ثقة أكيدة بأن المناضل هو الذي يطلق النار على الآخرين ، وفي الإمكان أن نطلق العبارات النارية بواسطة القلم ، هذا حال الكاتب.** » **(عايدة أديب بامية ، 1967 ، ص137)،** وهو نفس الاتجاه الذي نجده عند مالك حداد الذي يقول بدوره : «**إنني في اللغة الفرنسية في منفاي ، غير أن بعض المنافي يمكن أن لا تكون غير مجدية وإني أشكر من كل قلبي هذه اللغة التي مكنتني من أن أخدم ، وأحاول أن أخدم بلدي الحبيب.**» (مالك حداد ، 2012 ص11).

فقد حمل الكتاب الجزائريون الحقيقة إلى الآخر بلغته ، حيث مالوا إلى الحديث عن العادات الاسلامية والحياة اليومية للمواطن الجزائري ، فكانوا بمثابة سجلات تاريخية وشهود عيان على سياسة الاستلاب الثقافي التي مورست عليهم ، فهذا الوعي السياسي الذي نجده عندهم أدّى بهم إلى إثبات تواجدهم على الساحة الأدبية ،فهم نتاج السياسة التعسفية التي مورست في حق الشعب لأن حرمان الجزائري من لغته جعلها غريبة لديه ولم تكن هنالك سوى الثقافة الفرنسية بدرجات متفاوتة.

وها هو **مولود فرعون** يثبت في رواياته قدرة امتزاج الثقافة الشرقية والعقلية المغربية الجزائرية مع اللغة الفرنسية وشكّل روايات مكتملة البناء والفن ذات رؤية إيديولوجية مخطّط لها مسبقا ، فهذا النوع من الكتابة يستحق الشجاعة الأدبية والجرأة التي تمكنه من الخلق والإبداع ، فحفر ذاكرته وخاطب قلبه لينشر سنة 1950 "ابن

الفقير" ، وعام 1953 أصدر رواية "الأرض والدم" لنصل إلى سنة 1957 فيبدع رائعته "الدروب الوعرة" ...و كلّه أمل أن تؤثر نصوصه في المجتمعات والقراء ؛ لأنها محاكاة لذاته فيها وعي كبير ومساهمة جبارة في دعم القضية الوطنية وإيقاظ للهمة والروح الجزائرية.

إن الكتابة باللغة الفرنسية أصبح ضرورة ملحة وسلاحا يستخدم في معركة التحرير فهؤلاء الكتاب أدركوا جيدا أن "**الكلمة التي تخرج من قلب إنسان موهوب ذي عاطفة صادقة تتمكن أن تفعل في الآخرين وأن تخدم بقدر ما يخدم المدفع والمحراث.**" (عبد العزيز شرف ، 1991 ، ص53)، وهو ما بينه **مالك حداد** بقوله: «**إن التاريخ والأدب شيء واحد فالكاتب الذي يعتبر نفسه منتميا للثورة الجزائرية ، والذي يشترك في هذه الثورة ليس بالضرورة شخصا سياسيا ، ولكنه بالضرورة يسهم بعمل سياسي وليس علينا أن نختار نحن الكتاب الجزائريين فلقد اخترنا وانتهى الأمر ، والتزمنا الثورة والتحقنا بها دون أي وجل.** » (عبد العزيز شرف ، 1991 ، ص53).

إن الكتاب الجزائريين الذين أسمعوا صوتهم باللغة الأجنبية تمكنوا من جمع ثقافتين مختلفتين أجادوا تصوير حياتهم وحياة وطنهم بكل موضوعية ؛ إذ طرحوا العديد من المتناقضات والاشكالات التي زخرت بها مرحلة الوعي الوطني ، فأوجدوا انسجاما بين قدرتهم الإبداعية وقوميتهم العربية وبين اللغة الأجنبية التي أجبروا على استخدامها بسبب تكوينهم المدرسي الذي قادهم دون تفكير إليها فهذا **محمد ديب** يقول:«**إن هذه اللغة هي الناقل المثالي لفكر يبحث من خلال الواقع المحلي الالتحاق بالاهتمامات العالمية لعصرنا**». (سليم بتقة ، 2017)، وهذه اللغة تضمن له جمهورا من القراء في تلك المرحلة ، ومع ذلك فأعمالهم تزخر بصدق العاطفة والأمانة التاريخية والحقيقة الجزائرية.

لكن تبقى الفرنسية **المأساة اللغوية** لكل من عبر بها **فمولود معمري** يعتبر الثقافة الفرنسية ستارا يخفي وراءه المستعمر نوايا خبيثة ؛ لأن الشعوب المستعمَرة لم تنل الحظ الوافر والحقيقي من هذه الثقافة وانحصرت في فئة ضئيلة جدا مع العلم أن العلم والمعرفة تغدقان على الشعوب دون حساب أو أغراض دفينة فهدفهما ترقية العقل والروح. (عبد العزيز شرف ، 1991 ، ص 57) ، وهو ما جسد له ألما روحيا ، وبلغ هذا الوضع الدرامي مبلغه من التأزم عند الكاتب **مالك حداد** الذي حمل هما مزدوجا **اللغة/ الاستعمار ،** وهي المأساة التي نجدها في كل أعماله التي تمتلئ بشحنة هائلة من العواطف والأحاسيس والهموم الوطنية والإنسانية وحتى الشخصية الذاتية ، لكنه اتخذ موقفا فاصلا وتوقف عن الكتابة

باللغة الفرنسية ؛ لأن أساس الهوية الوطنية الجزائرية هي اللغة العربية ، وبلاغته الفرنسية لا يمكن أن تساوي حرفا عربيا مقدسا على حد تعبيره ، وما زاده ألما هو عدم إتقانه لهذه اللغة المقدسة فيقول في قصيدة كتبها إلى صديقه الشاعر الفرنسي **أراجون**:

تلك هي مأساة اللغة
لقد شاء الاستعمار أن يكون في لساني آفة ، أن أكون معقود اللسان
لا تلمني يا شاعر ، يا صديقي ، إذا لم يطربك صداحي
لقد كنت أنادي أمي في طفولتي: يامّه..
وأسميها الآن في شعري ma mère
أماه.. يامّه.. هل يمكن أن يكون اسمك: ma mère

هذه هي شدة الوجع في أعلى درجاته خاصة عندما يتمنى الكاتب لو أنه كان راعيا بسيطا ولم يُنف إلى لغة غير لغته الأصل ، وتتكرر جملته التساؤلية التي يقارن فيها لفظة الأم في اللغة العربية واللهجة الجزائرية بـ ma mère في لغة الآخر وتسوَدّ الدنيا في عينيه لأنه لم يتقبل الفكرة فيقول:

يا إلهي: ما أشدّ وطأة الظلام في عيني هذه الليلة
أمّاه.. يامّه
هل يمكن أن يكون اسمك: ma mère

فقد اعتبر **مالك حداد** الفرنسية منفاه فيقول: « **اللغة الفرنسية حاجز بيني وبين وطني أشد وأقوى من حاجز البحر الأبيض المتوسط ، وأنا عاجز على أن أعبر بالعربية عمّا أشعر به... إن الفرنسية ل منفاي.** » (أحمد بن نعمان ، د.ت ، ص 25). وقرر التوقف عن الكتابة بها بعد استقلال الجزائر فخيبة الأمل تكون عظيمة عندما لا يستطيع التعبير عن خلجاته الذاتية إلا بلغة الآخر " فالكاتب الجزائري يشعر في قرارة نفسه أنه عربي الدماء مسلم العقيدة ، وأنه ينتمي إلى منطقة من العالم لها تقاليدها الخاصة وعاداتها المميزة ومشاكلها الوطنية مع الاستعمار الذي فرض لغته على أهالي البلاد ، وحرمهم من تعلم لغتهم الوطنية ، فإذا شاء هؤلاء الكتاب أن يعبروا عن خلجات نفوسهم فإنهم لا يجدون لذلك من وسيلة سوى اللجوء إلى اللغة الدخيلة التي أتقنوها ونافسوا أبرز أدباءها ، ورغم تميزهم وقدرتهم إلا أنهم يشعرون بنزيف حاد وشرخ داخلي حول هذه اللغة التي اعتبروها منفى لهم ، فالمنفى لا يتجلى في بعد الدار والحرمان من اجتماع الشمل بالأهل ، بل هو

أعمق من ذلك ، إنه الانقطاع عن الثقافة الوطنية والشوق والحنين اللامتناهي للغة العربية. (ربيحة لمودع ، 2011 ، ص 26).

إن هذا الأدب المعبر بالفرنسية يحمل كافة مقومات الروح الوطنية العربية الخالصة ، لأنه كان لزاما على الأدباء تطويع هذه اللغة المستعارة وتشكيلها لتلائم مواضيعهم المقترحة ، وهكذا "**صارت لغة الآخر هي من أخذ طابعا مختلفا تحت أقلامهم.**" (عايدة أديب بامية ، 1967 ، ص 256) ، وتفاعلت مقومات اللغة الفرنسية مع أسس الثقافة الجزائرية العربية وولّدت لنا أدبا لاحظ فيه النقاد العرب" **أن كلّ من قرأ للكتاب الجزائريين ذوي التعبير الفرنسي أن هناك غرابة وسوء جوار بين الأسلوب وبين حوادث القصة أو عاطفة القصيدة ؛ لأن هذه الأخيلة خلقت لكي يعبر عنها باللغة العربية ، وإبرازها بمنطق فرنسي يجعل اللفظ متضاربا مع صميم القصة خاصة إذا كانت مرتبطة بالمجتمع العربي الجزائري.**" (محمد الطمار ، د.ت ، ص 496).

فالدهشة التي أصيب بها الناقد والمتلقي على السواء هي دهشة طبيعية ، فالكتابة بلغة غير اللغة الأم يعتبر معضلة لكنه أمر طبيعي وواقع لا مفر منه بالنسبة للأديب الجزائري إبان المرحلة الاستعمارية ؛ لأن اللغة العربية كانت ممنوعة من الساحة الثقافية حتى المجتمع حُرم من لغته فلم يتعلم القراءة والكتابة بها ، ومن ألّفوا بلغة الآخر وجدوا صعوبة في النشر وهذا ما وضحه **محمد ديب** بقوله: «**ولم يكن ممكنا آنذاك للشباب الجزائري هواة الأدب أن ينشروا كتبا... فكان ذلك عالما محرما وهذا لا يرجع لكوني كاتبا ناشئا بل لكوني جزائريا.**» (عايدة أديب بامية ، 1967 ، ص 59).

إن محمد ديب متمسك بأصالته الجزائرية وما اللغة الفرنسية إلا أداة يؤكد بها على عدم سيطرة الثقافة الفرنسية على البيئة الجزائرية ، والكتابة بالفرنسية أكسبت هذا النوع من الأدب التميز والقوة كما كانت لها وظائف متعددة في فاعليتها وتأثيرها على الساحة الثقافية الفرنسية ، وهو ما جعل سلطة فرنسا تقوم بمصادرة هذه الأعمال ومنع النشر لا لشيء سوى أن هذه الأعمال ما هي إلا صورة أخرى من صور الكفاح والمقاومة الجزائرية حتى أن مالك حداد صرح "أن الكفاح في الجزائر يشبه الحياة. فالقلم لا يقل فائدة عن البندقية الرشاشة أو مقبض المحراث ، فالأدباء في فترة الثورة هم شهود غير مرغوب فيهم يزعجون راحة الاستبداد ، وكتاباتهم فعّالة كأيّ شيء أو أسلوب آخر من أساليب الكفاح ضد قوى الخنق الثقافي والوطني ، فالحرب الجزائرية تدرج ضمن الإنسانية العالمية والأعمال

الإبداعية التي أرخت لتلك المرحلة تساهم في بناء هذه الإنسانية ؛ذلك لأن الحرب القائمة هي حرب تسعى لترقية الإنسان إلى الأفضل وإلى المحافظة على الكرامة الإنسانية فالأدب بذلك هو إنسانية متحركة." (جبور أم الخير ، 2011 ، ص 59).

هذا الأدب وهؤلاء الكتاب تعرضوا لنقد لاذع شكّك في هويتهم ، فهم الذين أبدعوا بلغة الآخر اعتبروا أنفسهم منفيين وأدبهم وقع في أزمة الهوية فهل نعتبره أدبا فرنسيا للغته ؟ أو أنه عربي لروحه ؟ فمسألة اللغة ترتبط ارتباطا وثيقا بالهوية فلا هوية بدون اللغة الأم ، والاستعمار حرم اللغة العربية في المعاملات والتعليم حتى أصبح المواطن والكاتب على الخصوص يعيش غربة داخل وطنه لأنه فكر وجسّد مواقفه بغير لغته ، فكيف نثبت هوية هذا الأدب ؟

3.أزمة الهوية (الهوية الأم / الهوية المصطنعة)

إن الازدواجية اللغوية لأصحاب الأدب الفرانكفوني أحدثت انقساما كبيرا في حياتهم الثقافية والفكرية بسبب الهوة التي اتسعت بين هويتهم الوطنية العربية ولغتهم التي كتبوا بها ، ووقع الإشكال بين النقاد: كيف نصنف هذا الأدب ؟ هل نعتمد على الإطار الجغرافي أو على اللغة المستعملة ؟ هل ننظر إلى روحه أو إلى لغته الفرنسية ؟...وما هو موقف الأدباء من هذه الحملة النقدية الشرسة ؟

من السؤال الأخير نبدأ فقد قال **كاتب ياسين**: «**لقد كانت هناك حرب بيننا وبين فرنسا ولكن من يقاتل لا يسأل نفسه ليعرف إن كانت البندقية التي يستعملها فرنسية أو ألمانية أو تشيكية ، إنها بندقية وهي سلاحه وهي لا تخدم إلا معركته.**» (عبد العزيز شرف 1991 ، ص 157). فهذا القول يبين لنا أن الكتّاب ناضلوا خير نضال بالفرنسية واتخذوها خير سلاح إذ كانت فرنسا تتباهى بفرنسيتها على ألسنة الجزائريين ؛ لكن الوعي الوطني والسياسي للكتاب انطلق من أصالتهم وقوميتهم العربية فأبدعوا بلغة الاستعمار ضد الاستعمار ، وكاتب ياسين يقول في هذا الصدد: «**إن الفرنسية ليست سوى أداة لتوصيل أفكارنا إلى المثقفين في العالم لنجذب به المفكرين الأحرار لنصرة قضية جزائرنا العربية ولكننا نحمل روحا عربية وعزيمة ثورية عربية لأن جزائرنا ليست فردا بعينه أو شخصا بالذات ، إنما هي فكرة ومعنى أو هي قيمة ومثال وهي أولا وأخيرا عربية.** » (عبد العزيز شرف ، 1991 ، ص 157). وهذا يعني أن الكاتب لا يشكّك مطلقا في قومية وجزائرية أدبه

لأن اللغة الفرنسية كانت خير مترجم لذواتهم وانكساراتهم الدفينة خاصة في مرحلة الثورة ففي رواية **نجمة** نجد الكاتب يبحث عن موطنه الأم ويجسدها في شخصية أنثوية اسمها نجمة وما نجمة سوى روح جزائرية عربية أحداثها أثّرت في الكاتب تأثيرا بالغا خاصة مجازر سطيف التي كانت المنبع الثري لسرد الأحداث ، التي اتخذ لها اللغة الفرنسية وسيلة فنية للإخراج ، فكانت الأسلوب النضالي الأمثل لنصرة الثورة الوطنية ، وبالتالي هوية الأدب من منظور كاتب ياسين هي جزائرية بحتة وصنّف على أساس الروح الجزائرية التي كتب بها لا على اللغة.

إن اللغة الفرنسية بالنسبة لكاتب ياسين هي "**شيء لا يمكن لجزائري وطني أن يتنازل عنه إلا بصعوبة (عبد العزيز شرف ، 1991 ، ص 160)** ، لأنه عانى الويلات من التمييز العنصري أثناء تتلمذه في المدارس الفرنسية في الفترة التي كان فيها جل الشعب الجزائري يعاني من الأمية ، فلم يكن له خيار سوى أن يتقن بلاغة هذه اللغة ويطعن بها عدوه وعدو البلاد.

فالكتابة هي أعلى بنية معرفية عند الفرد والمجتمع ، وأول ما يستخدمه الانسان لإخراج أفكاره من أجل المحاورة والتحليل ، فالتأليف باللغة الفرنسية عند كتابنا هو انسجام وتضاد وصراع في الآن ذاته ؛ لأنها موجهة للاستعمار وتفكيك قوانين البنية التحتية التي أسسها في الجزائر ، فالكلمة حركة وفعل وعزز الأدباء الجزائريون الفهم الصحيح الواقعي للبلاد فيقول **مولود معمري**: « **إنني على ثقة أكيدة بأن المناضل هو الذي يطلق النار على الآخرين ، وفي الإمكان أن نطلق العبارات النارية بواسطة القلم ، هذا حال الكاتب.** » (عايدة أديب بامية ، 1967 ، ص 137).

حتى **مالك حداد** الذي شعر بغربته وواقعه كمثقف متأرجح بين ثقافتين كان شديد الالتزام بقضية شعبه ومأساة وطنه ، فهمّه الوحيد خدمة الثورة الجزائرية والإسهام في تحقيق أهدافها ، فاختار القلم وحرّر في الصحف وألّف القصص فيقول: «**وإنني لواثق من أننا نحن الكتاب الجزائريين الذين نكتب باللغة الفرنسية سنفقد مبرّرات وجودنا حين تحقق ثورتنا أهدافها ، أي تحقيق الاستقلال والتحرّر التام بنشر التعليم في البلاد وخاصة اللغة العربية.** » (عايدة أديب بامية ، 1967 ، ص 158).

ونلاحظ هنا أن الهدف الأساسي للكتاب هو فضح الممارسات الاستعمارية البشعة في حق شعب أعزل وسعوا إلى إعلاء صوت الحق وفي هذا يقول مصطفى الأشرف:

« **ينبغي القول إن هذا الأدب المكتوب بالفرنسية ومن الجانب التقني والفني والجمالي كان وليد الجيل التلقائي وقارب قمة الصراحة.** » (جبور أم الخير ، 2011 ، ص 30).

وقمّة الصراحة تكمن في تصحيح صورة الجزائر التي شوهها الآخر في المنابر العالمية وهو ما جعل **مولود معمري** يصرّح: «**لقد أردنا أن يفهم الأوروبي حقيقة إفريقيا كما تحس من الداخل ، إذا كان عدد القراء الأفارقة قليلا بسبب قضية الأمية ، فنحن مجبرون أن نعرّف بأنفسنا وأن نعرّف بهذا الوطن لحملة الأحكام المسبقة عن إفريقيا ، إذا فنحن أجبرنا على الكتابة ولكن. للأسف والغرابة لكم أنتم الأوروبيون**» (جبور أم الخير ، 2011 ص 30)، وهنا نلاحظ أن اللغة الفرنسية بالنسبة لهم هي وسيلة لترجمة أفكار الذات وإفهام الآخر والأقرب للقراء وهي نقطة قوة لا ضعف والدليل على ذلك ما قاله **مولود فرعون**: «**يجب أن لا نبكي ونشعر بالضياع لأننا نكتب باللغة الفرنسية فأنا شخصيا إذا كتبت باللغة الفرنسية لا أشعر بأية عقدة نقص ، فالكاتب مهما كانت اللغة التي يكتب بها إنما يقوم بعملية ترجمة لعواطفه وأفكاره هو.** » (أحمد منور ، 2013 ، ص 163-164). والثقافة الفرنسية على حد تعبير كاتب ياسين **"لا يمكن لها إلا أن تؤجج فينا الظمأ إلى الحرية والأصالة."** (أحمد منور ، 2013 ، ص 164).

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الهوية القومية الجزائرية لهذا الأدب الناطق بالفرنسية بالنظر إلى زاوية الروح التي كتبت به ، كذلك عبّر تعبيرا صادقا عن محنة الشعب وروح المقاومة التي اتصف بها.

وما يجب أن ننوّه له في هذا المقام هو الإشكالية التي وقع فيها الكتاب بعد الاستقلال ؛ إذ لجأت الدولة إلى التعريب لاعتبار اللغة العربية أحد مقومات السيادة الوطنية ، فوجد الكتاب أنفسهم في مأزق استمرار الكتابة بلغة الآخر ، لكن **محمد ديب** يجد الحل بموقفه الوسط الذي قال فيه: «**إن الأدب الجزائري بعد الاستقلال سيحاول فيما يبدو لي أن يدخل في حركة الفكر العالمي ، وسيحاول باختصار أن يرتفع إلى مستوى الالتزامات الفكرية والفنية في أي بلد تسير فيه الحياة سيرا عاديا.** » (عبد العزيز شرف 1991 ، ص 162).

فموقفه حكيم وسطي عكس مالك حداد الذي انطوى على نفسه ونادى بضرورة التوقف عن الكتابة بها ؛" **لأن نظرة الجزائريين للموجة الجديدة من الكتاب نظرة احتقار حيث رأى بعضهم أن هؤلاء لا يمثلون المجتمع الجزائري لأن لغتهم المستخدمة بعيدة عن**

لغة المجتمع أو لأن أعمالهم تنشر في فرنسا أو لأنهم تلقوا جوائز وتكريمات من الخارج." (جبور أم الخير ، 2011 ، ص 31).

وهنا نحس أن هذا النوع من الأدب أصبح يعاني أزمة هوية بالفعل خاصة بعد تصريح الناقد الفرنسي "بول قوت Paul Guth" الذي اعتبر أن كبار الكتاب الجزائريين أمثال محمد ديب ومولود معمري ما هم إلا دليل على نجاح الثقافة الفرنسية والطابع الاستعماري فيقول: «**لقد بنيتُ سابقا القفزة الرائعة التي حقّقها كتّاب شمال إفريقيا محمد ديب ، مولود معمري ، ويمكن إضافة ألبير ميمي ، فنجاح هذه المجموعة التي اتخذت كامو قدوة ومثالا وتميزها ، يدلّ على اتساع رقعة الثقافة الفرنسية في فترة يسعى فيها العديد من الناس إلى نفي منافعها في الأراضي التابعة للحكم الفرنسي.** » (جبور أم الخير ، 2011 ، ص 31). ونلاحظ من هذا القول وكأنه ينسب هذا النتاج إلى الأدب الفرنسي وما نستنتجه أيضا أن جمهور القراء لم يكن متوفرا في الجزائر ؛ لأن نسبة الأمية بلغت أكثر من ثمانين بالمئة ، وهنا تتجسد لنا الأزمة اللغوية والسياسة الاستعمارية التي خنقت وضعية المثقف الجزائري الذي أصبح رقيبا على نفسه قبل رقابة السلطة الاستعمارية عليه ، وهو ما أكده مولود معمري بقوله: «**كنت مضطرا للتعبير عن أفكاري بأسلوب غير مباشر واللجوء إلى الغموض وأحيانا وهذا أخطر وأعظم إلى اختيار مواقف ما كنت اخترتها في إطار سياسي مختلف.** » (عايدة أديب بامية ، 1967 ، ص 55)

وهو الفخ الذي وقع فيه الكتاب إذ لم يستطيعوا إرضاء لا القارئ العربي الجزائري ؛ لأنه في نظرهم ثمّن لغة الآخر ولا الآخر المعروف بعنصريته وتمييزه وبالتالي أصبح أدبا بلا هوية في نظر بعض النقاد فالرواية المكتوبة بالفرنسية في نظر النقاد لا تمثل التصورات الفرنسية أو المفاهيم الجزائرية فهي أشبه بكائن مميز يجمع بين الشكل الفرنسي والمضمون الجزائري فقد شبهه عبد المجيد حنون بالمولود الاستثنائي يولد ويكبر ويساهم في الحياة لكنه لا يمتلك شبيها ولا يمكن التخلي عنه. (جبور أم الخير ،2011 ، ص 31).

إن الأدب الجزائري المعبر بالفرنسية لا يمكن أن نظلمه ونصنفه في خانة **اللاهوية** لمجرد اتكائه على اللغة الفرنسية التي عرفت انتشارا واسعا في إفريقيا والجزائر خاصة ، فقد عرف هذا الأدب استجابة واسعة للقضايا القومية ، وكشف عن غايات إنسانية عامة وتتبع الثورة الجزائرية التي كانت النبع الغزير لأعمالهم ، فحب الوطن هو رباط الحياة ، فهذا النتاج الأدبي عربي جزائريّ الروح لكنه فرنسي من حيث اللسان.

وهذه آسيا جبار في روايتها "**أطفال العالم الجديد**" تعالج الثورة التحريرية من منطق المشاهد للأحداث لا المشارك فيها ، وتصور التغيير الذي أصاب الجزائر منذ ثورة الاستقلال وتبرز الدور الذي قامت به المرأة في ذلك ولم يكن بالأمر اليسير لهن حيث "**تولّين تنشئة أطفال العالم الجديد وتوعيته ، كما قمن بتضميد جراح هذا الشعب المكافح...ألوف من النساء دفعتهن الحركة الثورية إلى تحطيم القيود والتقاليد العتيقة التي وقفت طويلا حجر عثرة أمام مشاركتهن الفعالة في بناء مستقبل الجزائر. (عبد العزيز شرف ، 1991 ، ص 80-81).**

كما تكشف رواية "**القبرات الساذجة**" أحداثا مهمة ، انتقلت الروائية فيها إلى ميدان المعركة وإلى مخيمات اللاجئين ، ونفذت إلى أعماق نفوس الجزائريين ، الذين كانوا يحاربون على الجبهة التونسية. ورواياتها بصورة عامة تعدّ وثيقة قيمة للمجتمع النسوي الجزائري ، فقد كانت جبار في مركز أفضل من غيرها من الكتاب الجزائريين لتكشف عن أسرار ذلك العالم المغلق.(عايدة أديب بامية ، 1967 ، ص 81)، واستخدمت اللغة الفرنسية للتعبير وقالت عن ذلك: «**إن التعبير لا يتوقف على اللغة وحدها بل إنه يتكامل مع الإحساس ، وبما أني أتخذ من تجارب مواطني مادة كتابتي فالعكس قد يكون هو الصحيح ، إذ إني كثيرا والحالة هذه ما أكون مجرد مترجمة للغة الفرنسية.** » (عبد العزيز شرف ، 1991 ، ص 81).

وهنا نلاحظ أن المادة التي اعتمدت عليها آسيا جبار في التأليف هي واقع الشعب الجزائري ومشاعرها وأحاسيسها جزائرية ونمط تفكيرها عربي ولم تكن اللغة الفرنسية إلا ترجمانا لها ، حتى مولود معمري تعرض في أدبه إلى قضية الاستعمار والنضال التحرري ويقول دائما "أنا جزائري" فهو يركز على الشخصية الجزائرية إذ نشر في سنة 1952 "**الهضبة المنسية**" ، التي تبدأ "**وقائعها في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية ، لتصور الوضع في الجزائر في ظل الاحتلال الفرنسي ، ويعبر الكاتب عن مآسي الشعب وأحزانه وبؤسه. إنها فترة اليأس والقنوط بدون إمكانية للعثور على حل ، لأن الاستعمار لا يقدم حلولاً ، وأيا كان الأمر ، فإن بوادر الأمل بدأت تلوح ، كنتيجة للتغيرات التي طرأت على الوضع السياسي في الجزائر." (Mouloud Mammeri, 1952, p 32).**

وهنا نلاحظ الدور الجبار الذي قام به هؤلاء الأدباء في تصوير عادات وتقاليد المواطن الجزائري حيث نجدهم شهود عيان تارة ، وتارة أخرى نجدهم مشاركين في

الحدث ، فقد نقلوا الحقيقة إلى الآخر إيمانا منهم بالرسالة التي يقدمونها والدور المنوط بهم ولهذا يقول محمد ديب: «**في قلب كل كاتب حقّ وكل فنّان صادق تكمن رسالة وطنية لا تقوم له قائمة بدونها.** » (عبد العزيز شرف ، 1991 ، ص 74).

وتعتبر ثلاثيته خير دليل على قوله ؛ لأنها ذاكرة شعب بأكمله ووطن بأسره ، اتّقدت فيها المشاعر حيث صوّر نار الإحساس بالطبقية التي كانت موجودة بين حياة العمال في المدينة وحياة الفلاحين في القرية ، فقد كان بمثابة الكاميرا التي صورت معيشة سكان "دار سبيطار" وسكان "بني بوبلان" ، والكفاح الذي قاده حميد سراج من أجل إيقاظ الوعي في نفوس الجزائريين وحضهم على القتال والجهاد في سبيل الاستقلال ، فقال: «**أن النار قد بدأت ولن تتوقف أبداً .إنها تستمر مشتعلة ببطء وبعماء إلى أن تعم ألسنتها الدموية البلاد كلها بحرارتها المدمرة**» (Mohamed Dib, 1959, p20)

وهكذا جلبت المدارس الفرنسية الوعي الوطني من حيث لا تدري **فحققت الجدلية التاريخية وأخرجت النقيض من النقيض ، (جبور أم الخير ،2011 ، ص 38)** ففتحت أبواب العلم والمعرفة لفئة قليلة من الشباب الجزائري فتفتحت عقولهم ، وكانت الثقافة الفرنسية منبعا للفائدة أكثر من كونها مصدرا للضرر الذي سعى دوما إلى طمس معالم الهوية الوطنية بدءا بحظر استعمال اللغة العربية ، ولكن هيهات له فلم يكن ذاك التعليم سوى طريقا ممهدة أمام القضية الوطنية ولهذا يقول كاتب ياسين: «**أنا جزائري ولكني عبرت بالفرنسية. كان لابد من تعريف الفرنسيين بأنفسنا.** » (عبد العزيز شرف 1991 ، ص 73).

وعليه يمكن القول أن هذا الأدب عربي جزائري بالنظر إلى موضوعاته وأحاسيسه وهو ما أكده أحمد منور حين سئل عن هوية هذا الأدب فقال: «**هو إضافة للأدبين العربي الجزائري والفرنسي على حد السواء...أما هويته فهي عربية بروح كتابها ومشاعرهم ، وبالموضوعات التي تدور حول أعمالهم بل حتى بأسلوب تعبيرهم الذي يستمدونه من لغتهم وثقافتهم الأصلية ، وهي من جهة أخرى هوية فرنسية بحكم اللغة التي كتب بها.**» (أحمد منور ، 1991).

لكن هناك أمر أثاره غاني مراد في غاية الخطورة وهو أن التعبير باللغة الفرنسية عن القضية الجزائرية فيه إعجاب ؛ ولكن هذا الأخير يخلو من البراءة التامة ؛ لأن اللجوء إلى لغة الآخر ما هو إلا دليل على صحبة الثقافة الفرنسية فيقول: «**تفكير الشخصية حسب**

المنطق الفرنسي خطر ، فلكي تكون اللغة الفرنسية جيدة يجد الروائي نفسه مجبرا على جعل الشخصية تفكر بالفرنسية وعلى تحميلها أفكارا وعواطف على الطريقة الفرنسية وشيئا فشيئا يصل الروائي إلى تغيير طبائعها وربما إلى تشويهها أو افتقادها. » (عبد المجيد حنون ، 1986 ، ص 98).

لكنّنا نلمس نوعا من الغلو في هذا الرأي ؛ لأن اللغة الفرنسية أجبروا على استخدامها وكان لزاما عليهم أن ينسقوا بين قوميتهم وعبقريتهم اللغوية ، فهي **ضرورة ملحة تحمل في طياتها تناقضا.** (عبد العزيز شرف ، 1991 ، ص 50)، ومهما يكن من أمر فإن الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية قد أدت دورا بارزا في المقاومة بفضل ما طرحه الكتاب من مواضيع جريئة تمس وعي المواطن ، "**فهي نوع من الكتب التي تسبق الثورات ، والتي تخطط لهذه الثورات ، إذا كان للكلمة نصيب من السلطة**". (أمين الزاوي 1983 ، ص 41). فهي مستوحاة من حرب التحرير وتحمل في طياتها الصدق والحقيقة وقارئ هذه الكتابات يشعر بصدق الأفكار والوقائع ويحس أنها ترجمت للغة الآخر.

فصدق المشاعر والألم المجسد في هذه الأعمال كان الحد الفاصل في قوميتها لأن ما جُسّد فيها شهادة للتاريخ وفيها تحرّرت الأصوات الممنوعة كالفلاحين والمرأة وحقّقت لنفسها مكانة في الساحة الأدبية العالمية مثل ابن الفقير لمولود فرعون والدار الكبيرة لمحمد ديب ونجمة لكاتب ياسين والهضبة المنسية لمولود معمري...

خاتمة:

ان الحديث عن الادب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية يطول إذ يحتاج لمؤلفات كثيرة للفصل في هويته ، التي أثارت وتثير الكثير من الجدل بين النقاد والمختصين الذين ينطلقون في حكمهم على هذا الادب من مرجعيات مختلفة ، غير أن الدارس المنصف يمكن ان يحدد انتماء هذه الإبداعات على أختلافها وتعددها إلى الأدب الجزائري .

لقد تمكنا من خلال تحليلنا لقضية الهوية والمنفى اللغوي لدى المبدعين الجزائريين في دراستنا هذه إلى جملة من النتائج نذكر منها :

- الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية هو أدب جزائري عربي لأنه ولد على أرض عربية وأحداثه ومضامينه واماكنه عربية جزائري ،كما أن العقل الذي أنتجه عقل جزائري والمخيلة التي أبدعته هي مخيلة جزائرية .

- لقد وجد الكاتب الجزائري في لغة المستعمر تحديا لاظهار ثقافته من خلال التعبير بغير لغته الأم فشكلت اللغة الفرنسية أهمية بالغة في الدفاع عن الهوية والانتماء للجزائر وطنا وشعبا وابداعا.

- تمكن المبدع الجزائري من تطويع هذه اللغة لتناسب خصوصية الثقافة الجزائري ،حيث تفاعلت مقومات اللغة الفرنسية مع أسس الثقافة الجزائرية العربية فنتجت لنا أدبا جزائريا .

- لقد أكد هذا الأدب عن تميزه واختلافه عن الأدب الفرنسي الذي كتبه الفرنسيين من خلال المضامين والأساليب والأشكال التعبيرية التي تختلف عن نظبرتها الفرنسية .

-لقد عانى المبع الجزائري جراء استخدامه للغة الفرنسية وعاشى المنفى اللغوي غير انه تمكن من تجاوز ذلك ،إذ لم تكن اللغة حاجزا بينه وبين انتمائه لوطنه واحساسه بوطنيته ، وفي ذات الوقت لم تتمكن هذه اللغة من النيل من أصالته ولاثقافته ولاعاداته وتقاليده بل على العكس كانت عاملا من عوامل الثورة وتحرير الذات .

- شكلت اللغة الفرنسية لدى المبدع الجزائري وسيلة كفاح ونضال ضد الآخر المستعمر والتعريف بالقضية الجزائرية للعالم .

- تعد هذه الابداعات الجزائرية المكتوبة بالفرنسية فعل مقاومة ،تمكنت الذات المبدعة من خلاله فضح المستعمر وفضح جرائمه وتقديم صورة حقيقية صادقة لمعاناة الشعب الجزائري.

- لقد أثبت هذا الأدب جزائريته من خلال الروح الجزائرية التي تسري فيه ، والمضامين التي تسعى جاهدة للحفاظ على الهوية الجزائرية من خلال التركيز على الثوابت الوطنية .بعيدا عن اللغة المستعملة والتي لم تكم سوى اداة لنقل الافكار والتعبير ،فقد كشفت عن قدرة فائقة لتطويع هذه اللغة لخدمة الذات الجزائرية .

المراجع المعتمدة:

[1]- عبد العزيز شرف: (1991)، المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر ، دار الجيل ، بيروت ، ط1.

[2] - عبد المجيد حنون: (1986)، صورة الفرنسي في الرواية المغاربية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، د.ط.

[3]- عايدة أديب بامية : (1967)، تطور الأدب القصصي الجزائري ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1982.

[4] - مالك حداد:(2012)، الأصفار تدور في فراغ ، ترجمة: أحمد منور ، دار الألمعية ، الجزائر ، ط1.

[5] - سليم بتقة:(2017) الأدب الجزائري بالفرنسية بين عقدة اللغة وتكريس القطيعة متوفر على الرابط التالي: http//www.aswat-elchamal.com

[6]- أحمد بن نعمان: (د.ت)، الهوية الوطنية الحقائق والمغالطات، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والترجمة والتوزيع، برج الكيفان، الجزائر، المقدمة.

[7]- ربيحة لمودع، (2011)، التباسات الهوية في الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، من خلال رواية سأهبك غزالة لمالك حداد www.wn.dan.org/dalil/1hain/dalil/110.htn

[8] - محمد الطمار: (د.ت) تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر..

[9] - جبور أم الخير(2011)، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية دراسة سوسيو نقدية، أطروحة مكملة لنيل الدكتوراه.

[10] - ينظر: أحمد منور: (2013) الأدب الجزائري باللسان الفرنسي ، الناشر: دار التنوير للنشر والتوزيع.

[11]- Mouloud Mammeri: (1952) La colline oubliee, paris, Plon.

[12] -Mohamed Dib, (1959) La grande maison, paris, Seuil

[13]- ينظر: أمين الزاوي: (1983) الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، بحث في تطور علاقة الانتاج الروائي بالايديولوجيا من 1830 إلى 1982 ، ماجستير، دمشق.